

علاقات الجزائر مع البرتغال خلال الفترة العثمانية

د/ عبد القادر فكايير
أستاذ محاضر/ قسم العلوم الإنسانية
المركز الجامعي/ خميس مليانة

ملخص:

سنطرح في هذا المقال طبيعة العلاقات التي ربطت الجزائر مع البرتغال خلال الفترة العثمانية، وكانت هذه العلاقات تحكمها جملة من المعطيات، منها القرب الجغرافي للجزائر من البرتغال، والظهور المبكر لدولة البرتغال في تحقيق وحدتها القومية، وهذا ما جعلها من أوائل الدول الأوربية التي سعت أن تحصل على موقع لها في الجزائر في بداية العصر الحديث، وفي المرسى الكبير على الخصوص، بعدما سبق لها وأن احتلت مدينة سبتة بالمغرب الأقصى في عام 1415. غير أن فشلها في تحقيق هدفها ودخولها في صراع مع جارتها أسبانيا حول بسط النفوذ على المنطقة المغربية، جعلها في بعض الأحيان تساند أسبانيا في بعض حروبها ضد الجزائر وذلك يتجلى على الخصوص في حملة شالركان على الجزائر في سنة 1541. وأهم ما ميز العلاقات بين البلدين هو حالة العداء المستمر خلال ثلاثة قرون تقريبا، وهذا يتجلى في المواجهات البحرية بين سفن البلدين في البحر المتوسط وكذلك في المحيط الأطلسي. وكان الرايس حميدو أشهر البحارة الجزائريين الذين كانت لهم مواجهات مع البرتغاليين. ومع لجوء أغلب الدول الأوربية إلى عقد معاهدات سلم مع الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر، اضطرت البرتغال هي الأخرى إلى

التخلي عن سياسة العداء ضد الجزائر، والبحث عن عقد هدنة مع الجزائر، وتم ذلك في سنة 1785 بوساطة بريطانية، ثم توجت بإبرام معاهدة سنة 1813 التي أدخلت البلدين في حالة سلم.

الكلمات المفتاحية: الجزائر، البرتغال، البحر المتوسط، المحيط الأطلسي، البحرية.

مقدمة:

كان للجزائر بحكم موقعها الجغرافي المطل على البحر المتوسط علاقات مع مختلف الدول الأوروبية الكبيرة منها والصغيرة خلال الفترة العثمانية، ومن بينها البرتغال التي كانت من أوائل الدول الأوروبية التي حققت وحدتها القومية، وتطلعت إلى الاستعمار مع بداية العصر الحديث. وقد تميزت هذه العلاقات في بدايتها بمحاولات التوسع البرتغالي على الأراضي الجزائرية في القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. لكن تراجع البرتغال الاستعماري بسبب النفاسة الأوروبية لها، وخضوعها لبعض الوقت للنفوذ الإسباني، قد جعل احتكاك الجزائر مع هذا البلد يقل، وكان لقرارات مؤتمر تورديسيلاس في أواخر القرن الخامس عشر دورا في هذا التباعد. غير أن الاشتباكات بين بحارة البلدين ظل قائما وخاصة في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. وقد سعت البرتغال إلى إبرام معاهدة مع الجزائر من أجل إنهاء حالة التوتر السائدة في البحر، وقد توجت هذه المساعي بإبرام معاهدة سنة 1813.

1 - ظهور دولة البرتغال ونشأخها البحري الأول:

تعد البرتغال من أوائل الدول الأوروبية التي حققت وحدتها القومية مع بداية العصر الحديث، فإثر اعتلاء عرش البرتغال أسرة أفيز، بتولي الملك يوحنا الأول⁽¹⁾ سنة 1385، تمكنت هذه الدولة من تأمين استقلالها بعد انتصارها على القوات الأسبانية، وعقد تحالف مع انكلترا. (Bouchot، 1854:63-70، A.)

وكان التجار وصيادو السمك البرتغاليون قد أبحروا بعيداً عن موطنهم في المحيط الأطلسي قبل القرن الخامس عشر الميلادي. وهذا ما أدى بدولة البرتغال أن تقوم بسلسلة من المغامرات انتهت بكشف العديد من مناطق جديدة، وقد ساعد على هذا النجاح وفرة أدوات الملاحة والسفن المتطورة والاهتمام بعلم الجغرافيا. وبرز اسم هنري الملاح ابن الملك يوحنا الأول، كشخصية قيادية في بروز البرتغال، إذ أسهمت دراساته في خبرات البرتغاليين البحرية، وكان يشجع ويدعم كثيراً من الاكتشافات. وقد شارك في عدة حروب ضد بلاد المغرب، فقد نجح في احتلال مدينة سبتة، غير أنه فشل في احتلال مدينة طنجة. (البطريق، ع. د.ت. 48)

وصل البحارة البرتغاليون إلى جزر ماديرا عام 1419م والأزور عام 1431م. وعند وفاة هنري الملاح عام 1460م، كان البرتغاليون قد اكتشفوا الساحل الإفريقي الغربي وتوغلوا إلى الجنوب حيث وصلوا إلى ما يسمى اليوم سيراليون. قام البرتغاليون بفتح وتنصير شواطئ إفريقيا الغربية منهم وامتدوا على طول الشاطئ الغربي ووصلوا إلى مصب نهر السنغال، وأسسوا به مركزاً تجارياً يجرسه حصن في جزيرة أراغون بالقرب من الرأس الأبيض ومنه أخذوا يتاجرون بالذهب والرقيق، واستطاعوا في عام 1455 أن يحصلوا على امتياز بابوي يخولهم الانتقال إلى هذه الأصقاع والمتاجرة فيها. (Depping, G.B. 1830:260)

وفي عام 1481، أسس البرتغاليون في خليج غينيا قصر المينا⁽²⁾. وكانوا في هذا الموقع البحري يشترون الذهب من السكان المحليين، الذين كانوا يجمعونه من الأنهار المجاورة له. وتوالت إثر ذلك الحملات والرحلات والاكتشافات إلى أن تم التوصل إلى اكتشاف الطريق نحو الهند والعالم الجديد. (Septenville, E. 1900:44)

وفي نفس الوقت كانت أسبانيا تسعى من جانبها أن تصل إلى الهند عن طريق الاتجاه نحو الغرب، وسرعان ما نشب الصراع بين البلدين إذ كانت كل دولة تسعى إلى تأمين الأراضي التي اكتشفتها واحتلتها، فتوسط البابا اسكندر السادس،

الذي كان أساسا لمعاهدة تورديسيلاس (Tordesillas) سنة 1494 التي قضت بأن تستولي البرتغال على كل المكتشف شرقي خط وهمي يرسم بطول المحيط الأطلسي على بعد 370 ميلا غربي جزر الرأس الأخضر⁽³⁾، في حين يكون لإسبانيا كل ما يقع غربي هذا الخط. (P.B. 2010 ، Kamé)

2- الحملات البرتغالية على وهران والمرسى الكبير قبل مؤتمر تورديسيلاس 1494:

ذكر بعض المؤرخين الأوربيين أن البرتغاليين قد احتلوا المرسى الكبير في 14 أوت 1415⁽⁴⁾، وذلك في عهد الملك البرتغالي يوحنا الأول، ولكنها ظلت هذه القاعدة تتعرض دوما للهجمات التي كانت تشنها القوات الزيانية، ورغم كثرة أفراد الحامية البرتغالية المكلفة بالدفاع عن المستعمرة، فقد تمكن الزيانيون من استرجاعها في سنة 1437. وفي عام 1471 شن الملك البرتغالي ألفونس الخامس⁽⁵⁾ هجوما جديدا على المنطقة، وكانت مدينة وهران هي المستهدفة هذه المرة، لكن فترة الاحتلال لم تدم طويلا، إذ تعرضت المدينة على حصار محكم لمدة ستة سنوات من طرف الجزائريين أجبرت القوات الغازية على الانسحاب من وهران سنة 1477. (Fey, H.L. 1858:53)

غير أنها ومنذ إبرامها لاتفاقية مع إسبانيا في ثورتيدياس سنة 1494، حول تقسيم مناطق النفوذ، حاولت أن يكون لها نصيب من النفوذ في البحر المتوسط، وهو ما سعت من أجله، من خلال محاولتها احتلال المرسى الكبير.

3- فشل البرتغال في احتلال المرسى الكبير سنة 1501:

حاول البرتغاليون مرة أخرى احتلال المرسى الكبير، غير أنهم لم يتمكنوا من الفوز بها. لقد تطلعت الدولتان الأيبيريتان نحو الأراضي الإفريقية المطلة على البحر المتوسط، منذ بروزهما كدولتان قوميتان في أوربا، تسعى كل منهما إلى تحقيق الأجداد القومية. ومن تحقيق هذا المسعى، امتدت انظارهما إلى هذه الجهات،

وخاصة نحو مدينة وهران التي كانوا يعتبرونها وكرا للمحاربة المسلمين المهاجرين إليها من الأندلس. (Cazenave, J. 1925: 147)

ففي سنة 1500 طلب البابا اسكندر السادس⁽⁶⁾، والبنادقة من دولة البرتغال تقديم مساعدات إثر نجاح العثمانيين في استعادة منطقة المورة⁽⁷⁾، التي كانت تحت احتلال جمهورية البندقية. لبي ملك البرتغال النداء، حيث أمر بإعداد أسطول يتألف من ثلاثين سفينة مجهزة بمختلف المعدات والأسلحة، وقوات عسكرية تتكون من ثلاثة آلاف مقاتل. وعين على رأس قيادته السدون خوان دي مينيزيس (Don Juan de Menezes)، ابن كونت مقاطعة بيانا (Viana)⁽⁸⁾. كلفت هذه القوات باحتلال المرسى الكبير، وهي في طريقها إلى شرق البحر المتوسط، على أن يتركوا بها حامية معتبرة تتولى احتلال الساحل. (Esterhazy, W. 1840:114)

أقلعت الحامية من ميناء بلم⁽⁹⁾ يوم 15 جوان 1501، وتمكنت من الوصول إلى مدينة وهران دون أن تعترضها صعوبات، غير أن هبوب الرياح الغربية قد أجبرت السفن على الرسو داخل الخليج لمدة ثلاثة أيام. استطاع السكان خلالها اكتشاف أمر الذي أصبح يهدد مدينتهم، فأعلنوا حالة الاستنفار، واستقدموا من وهران ثلاثمائة فارس، وعدد من المشاة من أجل التصدي لهذا العدوان.

وفي 26 جويلية، تغلغلت القوات البرتغالية داخل ميناء المرسى الكبير، حيث شرع قائد الحملة على التو في إنزال جنوده إلى البر، دون أن يلجأ أهل المدينة إلى مقاومتهم، ومنعهم من الإنزال منتظرين الوقت المناسب لبدء الهجوم. تقدمت بعد ذلك القوات البرتغالية نحو أسوار القلعة، وأخذوا في إعداد السلام لتسلق الأسوار واقتحامها. استغل سكان المدينة ومن جاء لمساعدتهم من رجال وهران والمناطق الأخرى انشغال الغزاة باقتحام القلعة، وبدأوا بالهجوم، كما خرج أفراد الحامية الذين كانوا داخل القلعة في الوقت نفسه، والبالغ عددهم نحو أربعمئة فارس، والعديد من المشاة. فوجد الغزاة أنفسهم محاصرين من مختلف الجهات. وبدأت

المعركة بين الطرفين، كانت الغلبة فيها لصالح المسلمين، حيث تمكنوا من القضاء على ألف جندي برتغالي⁽¹⁰⁾، وأسر عدد كبير منهم. بينما تمكن عدد آخر من الفرار إلى مراكبهم بصورة فوضوية⁽¹¹⁾.

لم يعتبر البرتغاليون بالإخفاق الذي أصابهم، في محاولاتهم لاحتلال المرسى الكبير، فلم يعودوا مباشرة إلى بلادهم بل واصلوا طريقهم - كما كان مقررا - في اتجاه شرقي المتوسط، على أمل محو آثار هزيمة المرسى الكبير، والحصول على انتصار هناك يعيد لهم الاعتبار.

هكذا كانت رغبة الملك على ما يبدو، غير أن تلك الأمنية لم تتحقق، ولم تجد العزائم لوحدها في هذه الأمور، لتحقيق الأماني، حيث لم تؤخذ بعين الاعتبار، الحالة النفسية المنهارة التي كان عليها الجنود، إثر هزيمتهم وفقدانهم عددا كبيرا من رفقاتهم. فلم يتمكنوا من مناصرة الجنود البنادقة، والوقوف في وجه العثمانيين الذين استطاعوا خلال هذه الفترة من فتح مناطق عديدة كانت تحتلها جمهورية البندقية الإيطالية، وتمثل في دالماسيا وليبانث، ودورازو (Durazzo)⁽¹²⁾ في بحر الأدرياتيك، وكل منطقة المورة، بالإضافة إلى جزر أخرى في الأرخييل (Montanez, D.S.1858: 261). وبالرغم من إرسال الملك الفرنسي، بعض سفنه الحربية لتدعيم القوات النصرانية، إلا أن القوات العثمانية صمدت في وجه ذلك التحالف. وكاد العثمانيون أن يفتحوا مناطق أخرى كانت تابعة للبندقية، غير أن الأحوال الداخلية للسلطان العثماني بايزيد الثاني (1481-1512)⁽¹³⁾ أجبرته على إبرام صلح مع المجر في عام 1503 (فريد بك، م. 1983: 185)

لقد سعد سكان وهران والمرسى الكبير بانتصارهم على البرتغاليين والدفاع عن سواحلهم، ضد اعتداءات المسيحيين، لكنهم لم ينعموا طويلا بتلك السعادة، يسلموا من أخطار أعدائهم، لقد كان عدوان البرتغاليين، مؤشرا لاعتداءات إسبانية، تعرضوا لها بعد سنوات، كانت أكثر خطورة.

4- الدعم البرتغالي للأسبان في حربها ضد الجزائر:

ورث البرتغال نفس الحساسيات الأسبانية ضد الجزائر، وبلدان المغرب كلها، وكان طرفا في معاهدة تورديسياس مع أسبانيا بمباركة البابوية ضد البلدان المغربية ومنها الجزائر. ولذا مجده دوما في تيار المد الصليبي ضد الجزائر. ومن هنا كثرة مبادراته بمجك المناورات والمؤامرات ضد الجزائر، ومساعيه لخلق تكتلات حربية ضدها. فإلى جانب أعمال العدوان ضد المرسى الكبير وهران، كان لهذا البلد بعض النشاط الحربي تمثل في تعزيز الأسطول الأسباني في حملاته التي كان يقوم بها على السواحل الإفريقية المطلة على البحر المتوسط، نذكر منها الحملة على تونس سنة 1535 حيث أرسلت سفنا حربية بلغ عددها سبعة وعشرون سفينة تحمل ألفي رجل، تحت قيادة سالدانأ (A.de Saldanha) (Mercier, E.1888:37). وكان ضمن الجيش عددا من الأمراء والتبلاء الأوربيين من بينهم ابن ملك البرتغال الدون لويس. (Don Luis) (Belhachemi, J.L. 1984:305)

وفي سنة 1556 ضرب حسن قورصو مدينة وهران المحتلة من طرف الأسبان، عندئذ أبدت البرتغال رغبتها في نجدة الأسبان، فأمرت سفنها إلى الالتحاق بالسفن الأسبانية الموجودة بمالقة والمتوجهة إلى وهران. وبينما كانت القوات الجزائرية قاب قوسين أو أدنى من تحقيق النصر وتحرير وهران، جاء إلى حسن قورصو رسول من قبل علج علي، يحمل أمرا من السلطان سليمان، بأن يرسل كل السفن بما في ذلك السفن الجزائرية لتدعيم الأسطول العثماني في مواجهته لأسطول ندري دوريا، الذي كان قد خرب أرخبيل وسواحل المورة، وأصبح يهدد البوسفور. فوجد حسن قورصو نفسه مضطرا إلى رفع الحصار، فأجمرت كل السفن نحو اسطنبول، بينما رجع هو وقواته نحو مدينة الجزائر برا. (Didier, L. 1929:34).

وفي سنة 1785 سعت البرتغال لإقناع الدول التي كانت في حالة حرب ضد الجزائر بضرورة تشكيل حلف بينها ضد دول المغرب كلها، وفي الدرجة الأولى ضد الجزائر. وكانت البرتغال ضد التحالف الذي جمعها مع بريطانيا وأسبانيا بقصد

فرض على داي الجزائر عقد معاهدة سلم دائمة معه، حسبما صرح به وزير خارجية البرتغال سوزا في لشبونة للقنصل الأمريكي يوم 12 أكتوبر 1792.

5- المواجهات البحرية في أواخر القرن الـ18، وبداية القرن الـ19:

باستثناء هذه المشاركات للقوات البرتغالية في تدعيم الأسبان في فرض سيطرتها على السواحل الإفريقية المتوسطة، فإن المعارك البحرية بين الجزائريين والبرتغاليين كانت تجري على الخصوص في النواحي القريبة من مضيق جبل طارق أو في الأطراف الشرقية للمحيط الأطلسي المحاذية الساحل الأوربي الإفريقي. وكانت تلك المواجهات قليلة الوقوع خلال القرن السابع عشر والثلاثين الأولين من القرن الثامن عشر. لكنها عرفت تصعيدا خطيرا خلال الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، والعقد الأول من القرن التاسع عشر، وخاصة بعد إبرام المعاهدة الجزائرية الأسبانية سنة 1786. ولا شك أن ذلك يعود بالدرجة الأولى رفض البرتغال دفع الضرائب. فقد تمكن البحارة الجزائريون من غنم ستة عشر سفينة برتغالية وأسر 118 أسير، بالإضافة إلى كميات معتبرة من السلع. ومن أجل الوقوف في وجه هذه الضربات المتتالية التي يتعرض لها سكان غرب الأندلس، أقدمت الحكومة البرتغالية على تشكيل أسطول لحماية المناطق الساحلية الحساسة من هجمات البحار الجزائريين. وسعت من جهة أخرى إلى التوصل لإبرام هدنة مع الجزائر عن طريق وساطة مغربية، لكن هذا المسعى فشل. وفي سنة 1793 نجحت الوساطة البريطانية في عقد هدنة بين الجزائر والبرتغال، لكنها لم تدم طويلا. فقد تجددت المواجهات البحرية بين الطرفين ابتداء من سنة 1796، وخاصة المواجهات العنيفة التي حدثت خلال سنوات 1799، 1802، 1803، وظلت هذه الحروب مستمرة إلى غاية سنة 1810. حيث كان اليريس حميدو قائد أغلب هذه العمليات. وقد أبرمت هذه السنة هدنة بوساطة بريطانية، ثم أتبعته بمعاهدة سنة 1813. (زوزو، ع. 1981:23-24)

6- اليريس حميدو في مواجهة البرتغاليين:

نسوق في هذا العنوان أهم المواجهات التي قادها البحار الجزائري ضد البرتغال والمعروف باليريس حميدو⁽¹⁴⁾ الذي تجمع مصادر التاريخ، ومنها المصادر الغربية بأنه من أعظم الذين عرفهم تاريخ البحرية في العالم.

ففي سنة 1799 قاد اليريس ابن تابلك إحدى السفن من نوع الشبك، تمكن من احتجاز سفينة حربية برتغالية، وأسر تسعة وسبعون كانوا على ظهرها، بالإضافة إلى غنيمة قدرت بـ 385 و29ف، جاء بهم إلى مدينة الجزائر يوم الجمعة 30 أوت 1799. (Devoulx, A. 1859:97-98)

وتمكن اليريس حميدو في 28 ماي 1802 أن يقود إلى مدينة الجزائر حراقة برتغالية كانت تحمل على ظهرها مائتي واثنان وثمانون أسيرا إلى جانب أربعة وأربعين مدفعا. (Devoulx, A. 1859:86-87)

وفي نفس السنة التقى اليريس حميدو بحراقة برتغالية، ولكي يسهل عليه الاستيلاء عليها لجأ إلى مغالطة من كان على ظهرها من الرجال، وذلك برفع العلم الإنجليزي. ولما اطمان البرتغاليون، سمحوا لحراقة اليريس حميدو بالدخول إلى مياههم. ولما انكشف الأمر، لم يتمكن البرتغالية من تجنب الوقوع في الاشتباك مع الحراقة الجزائرية. حيث أسرع البحارة الجزائريون بالقفز إلى السفينة البرتغالية، وبعد مدة قصيرة من القتال، تمكنوا من تحقيق النصر والقضاء على مقاومة يائسة، تغلبت عليها عناصر المباغته وانتشار الفوضى في أوساط البرتغاليين. (Devoulx, A. 1859:90)

وفي سنة 1803 تمكن اليريس حميدو على الأسرى البرتغاليين وفيما يلي ذكر لأسمائهم:

- جاكينوا جزيف باراي ديمادو، نائب قابودان برتغالي،

- دومينغو لويس تيودور، ضابط برتغالي.

- مانويل دوماتوس، ضابط برتغالي.
- بوياريان جويفو فانتو، قسيس برتغالي.
- جاكينو أنطونيو داكوتو، طبيب أسباني.
- جيون بانستا، ربان برتغالي.
- مانويل لويس فيريرا، ربان برتغالي.
- جاكينو جوزيفو فيريرا، ربان برتغالي.
- جوزيفو جوان، ضابط برتغالي.
- جوزيفو دوس سرتوا آرتهيو، رئيس المرشحين.
- جوزيفو مانو، ضابط.

- أنطونيو لاسيو، ضابط (A. 1859:90 ، Devoulx)

وفي يوم الأربعاء 19 مارس 1806) احتجز الرئيس هيدو سفينا برتغالية وهمبورية. ويقدر المحصول بمبلغ 594، 119 ف. 20 ستيما. (Devoulx,)
 (A.1859:106).

وفي السنة التالية (1807) تمكن الرئيس هيدو من الحصول على غنيمة برتغالية، باعها في المغرب. بمبلغ قدره 787، 11 ف. 60 ستيما. (Devoulx, A.1859:107).

وفي شهر أكتوبر من سنة 1808، احتجز اليريس هيدو سفيتين برتغاليتين مشحونتين بالقمح والفحم، وتحملان على متنها أربعة وسبعين رجل. ويقدر المحصول بمبلغ 485، 20 ف. و20 ستيما. (A.1859:108 ، Devoulx)

وفي سنة 1809، أسند الحاج علي باشا قيادة أسطول يتألف من أربعة سفن، والسماح له بالذهاب إلى المحيط الأطلسي. وكان الأسطول مشكلا من القطع التالية: حراقة مزودة بأربعة وأربعين مدفعا، وهي سفينة القيادة التي يركبها اليريس

حميدو. والحراقة البرتغالية عليها أربعة وأربعين مدفعا آخر يقودها اليريس أحمد الزميرلي. وقارب يحمل على ظهره عشرين مدفعا يقوده مصطفى الماطلي.

ولما وصل اليريس حميدو إلى مضيق جبل طارق، تسلل إلى المحيط في جنح الظلام مستغلا الرياح الشرقية التي دفعتة إلى المحيط. وأبدى الأسطول الجزائري قدرته على الإبحار في هذا المسطح المائي الكبير، والمناورات الحربية فيه، حيث استطاع أن يحتجز ثلاثة سفن برتغالية، كان أحدها قادما من كوبا مشحونا بالتبغ. أرسل إلى مدينة الجزائر سفيتتين، وأبقى الثالثة معه. وبعد قضاء مدة في المحيط عزم اليريس حميدو على العودة، ولما وصل أسطوله إلى مضيق جبل طارق ظهرت أمامه أربعة برتغالية سفن كبيرة، منها ثلاث حراقات، تعترض طريقه. عندئذ سارع اليريس حميدو إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة للوقاية من خطر الأعداء. حيث أعطى الأوامر لاقتراب سفنه من بعضها، ورفع الأشرعة، وتوجيه الصواري في اتجاه الرياح. وأخذت سفنه تتقدم ببطء نحو سفن الأعداء. وخلال هذه الحركة أمر رجاله بقوله: ((إذا هاجمت السفينة، يجب أن نرد عليها جميعا)). ولما كادت الحراقات الجزائرية أن تلتقي بالسفينة البرتغالية انحرفت هذه الأخيرة، وبدلت اتجاهها. وقد ذكر أحد الشهود: ((أن الجماهير التي كانت ترقب المشهد من بعيد قد صفقت بحماس لتلك المناورة البطولية الرائعة)). وبعد أن تحقق أن البرتغاليين لا ينوون اعتراض طريقه، واصل اليريس حميدو سيره، دون أن يغير اتجاهه، إلى أن ابتعد كلياً عن أعدائه، ثم التحق بالجزائر. (الزهار، أ. 1980:106)

7- الصلح بين الجزائر والبرتغال:

عقدت بين الجزائر والبرتغال أربع معاهدات:

1- معاهدة هدنة سنة 1785 بين الداي محمد عثمان والملكة ماريما الأولى، بوساطة بريطانية.

2- معاهدة هدنة في سبتمبر 1793، بين الداي حسن والملكة ماريما الأولى.

3- معاهدة سلم بين الداي حسن والملكة ماريما الأولى في 28 سبتمبر 1795.

4 - معاهدة سلم يوم 14 جويلية 1813 بين الداى الحاج علي والملكة ماريما

الأولى. (قاسم، م. 1985: 91-93)

وفي بداية القرن التاسع عشر ظلت البرتغال تناضل من أجل وجودها القومي بعد غزو الفرنسيين لهذه المملكة خلال سنة 1808، مما أجبر ملكها على الفرار إلى ريوديجانيرو. وقد نتج ذلك الغزو إلى احتلال جزءا هاما من أراضيها. فاضطر ملكها إلى طلب التدخل من بريطانيا. فسارعت هذه الأخيرة إلى تلبية النداء من أجل حماية مصالحها في جبل طارق، والعمل على نجدة حليفها البرتغال، وتعزز التحالف بين البلدين مما أدى إبرام معاهدة تجارة وصداقة بينهما سنة 1810. (زوزو، ع. 1981:25)

وكانت من جهة أخرى تسعى بريطانيا لربط علاقاتها مع إيالة الجزائر، حيث عملت كل ما في وسعها من أجل أن تحظى بالمعاملة التي كانت تعامل بها فرنسا من طرف الجزائر في أوقات السلم والحرب. وكانت تسعى من جهة أخرى في نية غير معلنة، لإفساد التقارب الفرنسي الجزائري، وتعطيل الاقتصاد الفرنسي. فقد استطاعت أن تحصل في سنة 1806 على المؤسسات التجارية، وذلك باستغلالها بطريقة غير مباشرة، تترك الحرية فيها لجميع التجار ماعدا الفرنسيين. (الزيري، م. 1984:40).

وأمام توتر العلاقات بين الجزائر والبرتغال، التي ميزتها الكثير من المعارك الحربية بين بحارة البلدين خلال العقد الأول من القرن التاسع. حيث تمكن البحارة الجزائريون في كثير من الأحيان التأثير على تجارتها، وغنم العديد من وحدات الأسطول البرتغالي، وأسر العديد من الرجال.

وإزاء هذه الأحداث، صممت بريطانيا على استعمال مكانتها في الجزائر لصالح حليفها البرتغال للعمل على تحريرها على الأقل مؤقتا من مضايقات خصومها. ففي شهر ماي من نفس السنة (1810) سافر سكرتير المفوضية البريطانية في لشبونة قاصدا الجزائر حيث أجرى مفاوضات مع السلطات الجزائرية

لعقد هدنة، أو بعبارة أدق وضع المواد الأولى لمعاهدة الصلح بين البلدين . (شالر، و. 1982:136)

وفي 6 جويلية من السنة المذكورة توصل الطرفان إلى عقد اتفاقية هدنة بين البلدين لمدة ستين تضمنت ثمانية مواد، تضمنت قضيتين أساسيتين هما:

الأولى: مسألة افتداء الأسرى منهم الأسرى الجزائريين الموجودين في البرتغال، والأسرى البرتغاليين الموجودين في الجزائر. فقد أورد شالر أن نصوص هذه الهدنة تقضي بأن تدفع البرتغال إلى الجزائر مبلغ 690000 دولار. مضافا إليه مبلغ 337000 دولار فدية للأسرى البرتغاليين المحتجزين في الجزائر والذين كان عددهم 615 أسيرا. (شالر، و. 1982:136)

الثانية: وتتعلق بنشاط التجار البرتغاليين في الجزائر، حيث جاء فيها أن يستقبل التجار البرتغاليين وبواخراهم استقبالا حسنا في كل أنحاء الجزائر، وأن يعاملوا مثلما كانت تعامل الجزائر تجار الأمم الأخرى، وفي المقابل يتلقى الجزائريون نفس المعاملة في الممتلكات البرتغالية⁽¹⁵⁾.

وكانت بريطانيا قد تعهدت بأن تستمر على استخدام نفوذها في الجزائر للحصول على عقد معاهدة نهائية للصلح.

وفي غضون السنة التالية دفعت السلطات البرتغالية الفدية، وأطلق سراح الأسرى البرتغاليين المحتجزين في الجزائر.

وفي سنة 1813 عقدت بين البلدين معاهدة صلح نهائية بواسطة السيد أ. كورت الوزير البريطاني المفوض لدى دول المغرب وقد احتوت هذه المعاهدة على ستة عشر مادة⁽¹⁶⁾ دفعت البرتغال بموجبها إلى الجزائر مبلغا إضافيا قدره نصف مليون دولار. كما تعهدت بأن تدفع ضريبة سنوية قدرها 24000 دولار. بالإضافة إلى الهدايا القنصلية التقليدية وهدايا فترة كل ستين. وعقب عقد هذه المعاهدة، عين قنصل إنجلترا في الجزائر قنصلا للبرتغال أيضا، وهو يتقاضى من أجلها المرتب والمنح العادية.

الإحالات:

- (1) يدعى يوحنا الأول الكبير، ولد في مدينة لشبونة سنة 1357، ابن بطرس الأول العادل، توفي في سنة 1433.
- (2) أصبح هذا البرج فيما بعد نواة لنشأة مدينة سان جورج (Saint-Georges)
- (3) يقع الآن على 46° و 37' غربا.
- (4) بينما ذكر المؤرخ عبد الرحمن الجلابي أنها احتلت مرتين من طرف البرتغال، كانت الأولى في سنة 1474، استمر وجودهم بها لمدة خمسة سنوات. أما الثانية فقد امتدت بين (1483-1487). أنظر: الجلابي، ع.199).
- (5) يكنى بالإفريقي ولد في مدينة سينترا عام 1432، تولى الملك في سنة 1438، وظل فيه إلى غاية سنة 1481، حارب في إفريقيا وفي قشتالة، وفي فترة حكمه وصل البرتغاليون إلى غينيا.
- (6) اسمه الأصلي رودريغو بورجيا، ولد في مدينة خاتيا بأسبانيا سنة 1431، تولى البابوية بين 1492-1503).
- (7) وهو الاسم الذي تعرف به منطقة البيلوبونيز في اليونان حاليا من عهد فترة العصور الوسطى إلى القرن التاسع عشر.
- (8) تقع في شمال غرب البرتغال.
- (9) يقع إلى الغرب من لشبونة على بعد ستة كيلترات، كان مكانا لانطلاق الكثير من المكتشفين البرتغاليين إلى مختلف أرجاء العالم، من أشهرهم فاسكو دي غاما.
- (10) حسب تقدير مونتانيس، الذي ذكر أن بعض العرب المسنين من جبل غيزا (Guiza) بضواحي المرسى الكبير، رووا له: أن المسلمين قتلوا أكثر من ألف مسيحي، وأضاف أن أحد العرب الطاعنين في السن قد أظهر له قطعة رمح حديدية برتغالية، تعود إلى حادثة اندحارهم هناك. أنظر: (Montanez, D.S.) 1865:261-262

(11) بينما ذكر كازيناف أن البرتغاليين تراجعوا بفعل مطاردة المسلمين لهم نحو مراكبهم دون أن يتخلف منهم أحد، ولم يشر إلى أي قتيل برتغالي. أنظر: Cazenave, J. 1925:148

(12) الإسم الإيطالي لمدينة دوريس (Durres) في ألبانيا)

(13) حيث تعرض لعصيان من قبل أبنائه في الأناضول شغله عن الاستمرار في الحرب.

(14) اسمه الحقيقي هو محمد بن علي إلياس المدعو حميدو، ولد في قسبة مدينة الجزائر سنة 1773، ينحدر من عائلة تنتمي أصولها إلى مدينة يسر الواقعة إلى الشرق من مدينة الجزائر على بعد 60 كلم. استشهد في سنة 1815 بحرية مع البرتغاليين.

(15) أنظر نص المعاهدة في زوزو، مرجع سابق، صص. 33-41.

(16) أنظر النص الكامل لهذه المعاهدة في زوزو، مرجع سابق، صص. 33-41.

قائمة المصادر والمراجع:

1 - باللغة العربية:

البطريق، عبد الحميد، نوار عبد العزيز: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ.

دوفال، ألبيير: الريس حميدو، تعريب الدكتور محمد العربي الزبيري: ENAP، الجزائر، 1972.

الزهارة، أحمد الشريف. مذكرات أحمد الشريف الزهارة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

زوزو، عبد الحميد: هدنة 1810 ومعاهدة سنة 1813 بين الجزائر والبرتغال، مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، العدد 11، 1981، صص 21-52.

شالر، وليم: مذكرات وليم شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)،
تعريب وتعليق وتقديم، إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،
الجزائر، 1982.

فريد بك، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط.2، دار
النفائس، بيروت، 1983.

قاسم، مولود: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العامية قبل سنة 1830، ج.1،
ط.2، دار البعث، قسنطينة: 1985.

2 - باللغة الفرنسية:

Belhachemi, Jean Luis: Barberousses corsaires et rois d'Alger, Fayard,
Paris, 1984.

Rouchet Auguste: Histoire du Portugal et de ses colonies, librairie de
L.Hachette et Cie., Paris, 1854.

Cazenave, Jean., Oran cité Bèrbère, " B.S.G.O.", t.45, 1925, pp.157-144

Depping, G.B.: Histoire du commerce entre Levant et l'Europe, t.II,
Imprimerie Royale, Paris, 1830.

Devoulx, Albert: Le Rais Hamidou, Typographie Adolphe Jordan,
Alger, 1859.

Didier, L.: Histoire d'Oran t.5, : Imprimerie L.Petit. Oran, 1929.

Esterhazy, Walsin. De la domination turque dans l'ancienne régence
d'Alger, Paris, 1840.

Fey, Henri-Leon., Histoire d'Oran avant, pendant et après la domination
espagnole: Typographie Adolphe Perrier, editeur, Oran, 1858.

Kamé Raymond Pière: Les handicaps coloniaux de l'Afrique noire,
L'Harmattan, Paris, 2010.

Mercier, Ernest: Histoire de l'Afrique septentrional, t.3, Ernest
Leroux, Paris, 1888.

Montaner, Diego Suarez: Mer el Kabir: Traduit par A Barberousses
Pays Africain Tome neuvième, 1865, Office des publications
Universitaire, Alger.

Santenille, Edouard: Découvertes et conquêtes Portugal dans les deux
mondes, E.Dentu, Editeur, Paris, 1863.